آليات التماسك النصي: الزركشي والسيوطي أنموذجان

Text Cohesion Mechanisms: Al-Zarkashiy wa al-Suyūṭiy as a Case Study

Mekanisme Kohesi Teks: Al-Zarkashiy wa al-Suyūṭiy sebagai Kajian Kes

عمران رشيد*

ملخص البحث:

تحاول هذه الدراسة استجلاء حلقة الوصل بين علوم مركزية في الثقافة الإسلامية، عبر علم المناسبة التي هي من علوم القرآن الكريم، واللسانيات النصية، عبر التماسك النصي بنوعيه: النحوي والدلالي. والمقصود بالتماسك النحوي الآليات اللغوية الشكلية التي تربط بين أجزاء النص على المستوى السطحي، وأما التماسك الدلالي فهو الآليات التي تتجاوز المستوى السطحي إلى مستوى مجموعة المفاهيم الرابطة بين مكونات النص. ويعد التماسك النصي مقولة جوهرية في مفاهيم اللسانيات النصية؛ إذ يحتل موقعا مركزيا في الأبحاث والدراسات التي تُعنى بتحليل النصوص؛ لأنه يرمي إلى توظيف الآليات النحوية في الربط بين أجزاء النص ومن ثَم فهم المعنى عبر رؤية متماسكة لا تقتصر في تحليلها على الجملة أو مجموعة الجمل. وخلصت الدراسة إلى أن علوم القرآن بداية أصيلة لما أصبح يعرف بلسانيات النص؛ وذلك لاشتمالها على دراسة التماسك، والتكرار، والمناسبة، وهي قضايا جوهرية في مباحث اللسانيات النصية.

الكلمات المفتاحية: التماسك النصي- الزركشي- السيوطي- التحليل- المقارنة.

Abstract:

The study aims to uncover the relation between the fundamental disciplines in the Islamic sciences through the knowledge of appropriate events which is among the disciplines of the Quranic studies and text linguistics, through textual cohesion with its two categories: syntactical and semantic. Syntactical cohesion

* أستاذ مساعد، جامعة بشار، الجزائر.

is the formal language mechanisms which tie the text on its surface level, while semantic cohesion is the mechanisms which go beyond the surface level to that of a group of concepts that bind between the text constituents. Textual cohesion is a central concept in text linguistics which occupies central position in the researches and studies of text analysis. This is due to the fact that it aims at employing syntactical mechanisms in binding between the textual parts and subsequently tries to understand the meaning through a cohesive standpoint that is not limited only to sentence or strings of sentences. The study concludes that Quranic disciplines are among the original beginning of what is known as text linguistics since it comprises the study of cohesion, repetition ans occasion which are the central issues in text linguistics.

Keywords: Text cohesion– Al-Zarkashiy– Al-Suyūṭiy– Analysis– Comparison.

Abstrak:

Kajian ini menyasarkan untuk melihat hubungan antara beberapa ilmu-ilmu asas Islam melalui disiplin ilmu berkenaan konteks serta peristiwa-peristiwa sesuai yang juga merupakan antara disiplin-disiplin pengkajian Quran dan juga teks linguistik yang melalui konsep kesinambungan teksnya yang berdasarkan kepada dua kategori-kategorinya: sintaks dan semantik. Kesinambungan tatabahasa ialah mekanisme-mekanisme bahasa yang berstruktur yang mengikat teks pada aras permukaannya, sementara kesinambungan semantik pula ialah mekanisme-mekanisme yang melampaui batas permukaan teks yang merupakan sekumpulan konsep-konsep yang menghubungkan antara elemen-elemen teks. Kesinambungan teks ialah satu konsep utama dalam teks linguistic yang merupakan tumpuan utama dalam penyelidikan dan kajian-kajian analisis teks. Ini adalah kerana ia mengambil kira mekanisme-mekanisme sintaksis yang mengikat antara bahagian-bahagian teks dan kemudiannya cuba untuk memahamkan satu bentuk makna daripada satu sudut pandangan bersepadu yang tidak terbatas kepada hanya maksud sesuatu ayat atau sejumlah ayat-ayat yang digabungkan. Kajian ini menyimpulkan bahawa ilmu-ilmu pengkajian Al-Quran adalah permulaan asal kepada apa yang dikenali sebagai teks linguistik kerana ia juga mengandungi kajian tentang kesinambungan, pengulangan dan lain-lain yang merupakan isu-isu utama dalam kajian dan sisiplin ilmu teks linguistik semasa.

Kata kunci: Kesinambungan Teks- Al-Zarkashiy- Al-Suyūṭiy- Analisa- Perbandingan.

مقدمة:

تحاول هذه الدراسة استجلاء حلقة الوصل بين علوم مركزية في الثقافة الإسلامية كعلوم القرآن الكريم، ومنها علم المناسبة واللسانيات النصية، عبر التماسك النصي بنوعيه: النحوي والدلالي، والمقصود هنا بالتماسك النحوي الآليات اللغوية الشكلية التي تربط بين أجزاء النص على المستوى السطحي، والتماسك الدلالي الآليات التي تتجاوز المستوى السطحي إلى مستوى مجموعة المفاهيم الرابطة بين مكونات النص والتي تعجز الأدوات النحوية الشكلية عن وصفها وتحليلها.

وقد اخترت التماسك النصي بوصفه مقولة جوهرية في مفاهيم اللسانيات النصية، فالتماسك يحتل موقعا مركزياً في الأبحاث والدراسات التي تُعنى بتحليل النصوص؛ لأنه يرمي إلى غاية بعيدة وهي توظيف الآليات النحوية في الربط بين أجزاء النص ومن ثم فهم المعنى عبر رؤية متماسكة لا تقتصر في تحليلها على الجملة أو مجموعة الجمل، وعلوم القرآن في الحقيقة تُعَد بداية أصيلة لما أصبح يعرف بلسانيات النص، وذلك لاشتمالها على دراسة بعض القضايا النصية مثل: التماسك، والتكرار، والمناسبة، وهي قضايا جوهرية في مباحث اللسانيات النصية.

وتسعى هذه الدراسة إلى محاولة فهم آليات ووسائل التماسك النصي كما جاءت في علوم القرآن، ولا سيما في علم المناسبة، وكل ذلك في سبيل فهم هذا التراث الضخم الذي مازال قادرا على العطاء والتجدد، بحيث يمكن أن تتفوق بعض الآليات والوسائل التماسكية التي وردت في علم المناسبة على ما قدمته أحدث النظريات اللسانية، وبالذات اللسانيات النصية، ومن ثم فإن هذا التراث يستحق القراءة وإعادة القراءة لفهمه ووضعه في إطاره الصحيح.

تسعى هذه الدراسة إلى تقديم رؤية التماسك النصي عند علماء القرآن الكريم، بحيث يمكن أن يكون التماسك النصي وجها من وجوه الإعجاز القرآني، فإن تزايد الاهتمام باللسانيات النصية في الآونة الأخيرة يغري بتناول ما قدمه التراث العربي والإسلامي في هذا المضمار، ذلك أن الحضور الفاعل والقوي للنظريات اللسانية الغربية في حاضرنا يفترض عدم تجاوزه أو القفز عليه، بل يفترض الحوار والتثاقف الهادف، بحيث لا يأخذ كل ما استجد من نظريات كحاطب ليل، ولا يلغي الخصوصية الثقافية والحضارية العربية والإسلامية.

وتعد اللسانيات النصية مساراً في الدراسات اللغوية فرض نفسه بقوة في الآونة الأخيرة، بحيث انتقل باللسانيات من حيز الجملة إلى فضاء النص، فقد تطورت اللسانيات النصية في السبعينيات على يد VAN DIJK الذي يعد مؤسس علم النص، والذي أصبح حقيقة راسخة على يد الأمريكي بوجراند BEAUGRANDE في الثمانينيات؛ حيث لم تعد الجملة كافية لكل مسائل الوصف اللغوي.

وقد خصصت الدراسة لعلم المناسبة القرآنية، وقد كان هذا الحقل القرآني حقلا خصبا في الممارسة النصية، وقد اخترت الزركشي لأنه خصّص حيّزا واسعا للتماسك بين الآيات، والسيوطي الذي قدّم آليات نصية واسعة للتماسك النصي بين السور في كتابيه تناسق الدرر ومعترك الأقران، فقد رصد العلماء علاقات الآيات والسور المتجاورة عبر آليات نصية تتفوق على ما قدم في اللسانيات النصية.

المناسبة لغة:

يعرف ابن فارس المناسبة بقوله: (النون، والسين، والباء، كلمة واحدة قياسها اتصال شيء بشيء، منه النسب، سمي لاتصاله وللاتصال به تقول: نسبت أنسب، وهو نسيب فلان، والنسيب الطريق المستقيم لاتصال بعضه من بعض).[١] فالمناسبة في اللغة تعني الاتصال، والمقاربة، والمماثلة، ومنه يقال إن فلان يناسب فلانا أي يقاربه ويشاكله، والنسيب القريب المتصل اتصالا وقربا بمن يناسبه وهو كالوصف لثبات قرابته واتصاله.

المناسبة اصطلاحا:

وفي اصطلاح علماء القرآن، المناسبة هي بيان (وجه الارتباط بين الجملة والجملة التي في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة)،[٢] ويعرف البقاعي المناسبة بأنها (علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن)،[٣] فالمناسبة في الاصطلاح البحث عن الارتباط بين الآية وما بعدها وما قبلها، وبين السورة وما بعدها وما قبلها.

ويبدو أن معنى المناسبة في اللغة يتوافق مع ما اصطلح عليه العلماء في تعريف علم المناسبة، فكما يربط النسب بين المتناسبين فلا بد من وجود ارتباط بين الآيات والسور، سواء أظهر هذا الرابط أم خفي، ولا يشترط أن يكون التقارب بين المتناسبين تماثلا كاملا، فربما كان التقارب عن طريق التضاد، أو تباعد في المعنى، المهم أن هناك صلة من نوع ما، بين المتناسبين، أو رابط ما بين الآيتين أو السورتين، سواء توصل العلماء إلى ذلك الرابط أم لم يتوصلوا إليه، فقد تظهر المناسبة أحيانا، وتختفي أحيانا أخرى، ومن هنا تميز العلماء في فهم المناسبة القرآنية وإدراكها.

إن علم المناسبة من أبرز علوم القرآن التي يستعين بها المفسر في فهم القرآن الكريم، (ولعل الباحثين في علوم القرآن قد لمسوا أخطر جوانب النص حين درسوا وجوه المناسبة بين الآيات، وخصصوا لها علما قائما برأسه هو علم المناسبة كأنهم بذلك كدّوا في بحث شروط التخلص من وصل وتنظير وتلازم وتقابلٍ وملائمة).[٤]

ويعد البحث في هذا العلم من طريق غير مباشر؛ بحثٌ في أبرز وجوه الإعجاز القرآني، فالقرآن الكريم على الرغم من نزوله منجما في مدة تتجاوز العشرين سنة أو أكثر، تبدو فيه ملامح التماسك على مدار آياته وسوره، فعلم المناسبة من هذه الجهة هو أكبر ردّ على شبهات المستشرقين ومزاعمهم؛ بأن القرآن يخلو من وحدة تماسكية تربط آياته وسوره، وقد ظهر الوعي بقيمة التناسب، وأثره في بلاغة الكلام لدى الأدباء والبلاغيين وعلماء الإعجاز.[٥]

وعلى الرغم من أهمية علم المناسبة وفوائده فقد لقيَ إهمالا من طرف العلماء وذلك لصعوبته ودقة مسالكه، فقد ذكر ابن العربي بأن المناسبة: (علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه. ومن بين السابقين إلى اكتشاف المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابوري، وكان غزير

العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه؛ لما جعلت هذه الآية جنب هذه، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة).[٦]

ويقول الزركشي: (وقد قلّ اعتناء المفسرين بهذا العلم لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي، وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط).[٧]

أهمية المناسبة:[٨]

- فهم التناسب يجعل الكلام آخذاً بعضه بأعناق بعض، ليصبح كالبناء المحكم المتلائم الأجزاء وبه يعرف علل ترتيب أجزاء القرآن الكريم.
- دفع إيهام الاختلاف عن الآيات الكريمة، فقد يظن بعضهم أن الآيات نزلت في أوقات متباعدة، في موضوعات متعددة فلا رابط بينها، بل إن هذا الترابط بين الآيات والسور لون من ألوان البيان المعجز على الرغم من تباعد الزمان واختلاف الموضوعات، فالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم حقيقة ثابتة في كل سورة منه، وفي ذلك رد على ما ادعته الموسوعة الإسلامية الاستشراقية التي زعمت بأن الترابط بين الآيات في السورة الواحدة ضعيف قليل، وبأن ذلك الارتباط ضعيف وغالباً لا يوجد صلة ظاهرة أو قوية فيما بينها.
- إبراز وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم للوصول إلى الحقيقة المطلقة، وهي أن القرآن الكريم كلام الله المنزّل، وليس من تأليف البشر تصديقا لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.[٩]
- المناسبة بين الآيات والسور دلالة لغوية قوية في التعرف على المراد من الآيات ورفع اللبس عن مقاصدها، ومُرجِّح قوي من مرجحات بعض المعاني على بعض عند تزاحمها، سواء منها ما جاء في آيات الأحكام، أم آيات القصص القرآني، أم آيات الوعظ والتوجيه وغيرها.

أنواع المناسبات في القرآن:

النوع الأول– المناسبة في السورة الواحدة:

- المناسبة بين حروف كلمات الآية.
- المناسبة بين كلمات الآية.
- المناسبة بين الآيات المتجاورة.
- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.
- المناسبة بين اسم السورة ومقصدها.

النوع الثاني– المناسبة بين السور:

- المناسبة بين افتتاح السورة وخاتمة ما قبلها.
- المناسبة بين خاتمة السورة وفاتحة السورة التي بعدها.
- المناسبة المضمونية بين السورتين المتجاورتين.
- التقابل المعنوي بين السورتين المتجاورتين.

التأليف في علم المناسبة:

لقد نزل القرآن الكريم منجماً مفرقاً على مدار أكثر من عشرين سنة على حسب الأحداث والوقائع التي كان يعالجها، ومن هنا فإن العلم بسبب النزول يعين على توجيه فهم النص القرآني، وعلى الرغم من بقاء النص القرآني مفتوحاً في آياته وسوره فمع ذلك توجد فيه روابط تماسكية بين تلك الآيات والسور، بما يؤكد إعجاز النص القرآني، وقد تنبه علماء القرآن إلى أهمية المناسبة (فقد لمسوا أخطر جوانب النص حين درسوا وجوه المناسبة بين الآيات، وخصصوا لها علما قائما برأسه هو علم المناسبة).[١٠] ومع أهمية علم المناسبة فقد اهتم به قليل من العلماء، يقول الرازي : (إني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار).[١١]

أولا: التماسك النصي عند الزركشي:

تشكل دراسة الزركشي للتماسك بين الآيات والسور فكرة تامة وواضحة المعالم والحدود، فهي رؤية تحكم نظرته للقرآن الكريم، استطاع فيها أن يتلمس وجها آخر للإعجاز على طريق التماسك بين الآيات والسور. وقد خصص بابا مستقلا في كتابه "البرهان في علوم القرآن" تحدّث فيه عن التماسك بين الآيات والسور والآليات التي تحكم ذلك التماسك، كما نلاحظ في مختلف الأبواب الأخرى إشارات إلى التماسك في القرآن.

وقبل أن نتناول العلاقات التي قدمها الزركشي والتي يرى أن التماسك يتحقق عبرها، نُورِد نصا في فصل بعنوان "في قدر المعجز من القرآن"، لهذه الفكرة التي اقتبسها من الباقلاني؛ وهو أن الإعجاز يتحقق في قدر أقصر سورة من القرآن كسورة الكوثر، فإذا كانت الآية بقدر سورة الكوثر فالإعجاز متحقق فيها.[١٢]

يؤشر هذا النص إلى حقيقتين أولهما: الإشارة إلى وحدة أكبر من الجملة، وثانيهما: يؤكد هذا النص ما ذهبنا إليه من ارتباط تنظير الباقلاني بتطبيقات كل من الزركشي والسيوطي.

يبين الزركشي في بداية بحثه للتماسك بين الآيات أنه لا يعنى بدراسة الآيات التي يظهر وجه التماسك بينها جليا؛ لتعلق الكلام بعضه ببعض، أو إتمام الكلام السابق على جهة التأكيد أو التفسير أو الاعتراض.[١٣] ولكن يعينه هو دراسة الآيات التي لا يظهر فيها وجه التماسك مع أختها حيث تبدو أن كل آية مستقلة بنفسها.

ويقسم الزركشي التماسك إلى تماسك بين السور وآخر بين الآيات، والتماسك بين الآيات يقسمه إلى تماسك بين آيات معطوفة، وتماسك بين آيات لا يوجد فيها حرف العطف حيث تتجاور الآيات دون أي رابط.

أ- التماسك بين الآيات في السورة:

١- التماسك بين الآيات المعطوفة:

يقرر الزركشي أن فائدة العطف، أن يجعل الآيتين المعطوفتين كالنظرين والشريكين، يوضح ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.[١٤]

وقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.[١٥]

فيلج ويخرج، وينزل ويعرج، ويقبض ويبسط كلها نظائر، وبعد هذا الاستهلال النحوي يستنبط الزركشي قانونا يطرد في أغلب آيات القرآن ويشكل أساسا في تعليل تجاور الآيات، وهو أن ذكر الأحكام في القرآن يأتي بعد وعد ووعيد (ليكون ذلك باعثا على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه؛ ليُعلَم عظم الآمر والناهي وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها تجده كذلك).[١٦]

وبعد هذا ينتقل الزركشي إلى الموضوع؛ ليقدم نماذج من الآيات تشكل صوراً عامة تطرد في القرآن كله يتم على ضوئها إدراك وجه التماسك بين الآيات؛ فهي آيات يلتحق بها ما هو في معناها.

ونجمل علاقات التماسك بين الآيات عند الزركشي كالآتي:

علاقة مقامية:

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾.[١٧]

إن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن عند تلاوة هذه الآيةِ هو: ما وجه تماسك السؤال عن الأهلَّة بإتيان البيوت من ظهورها؟ إن المقام هنا هو الذي يفسر وجه التماسك في الآيتين، وذلك عند سؤالهم عن الأهلة ونقصانها كأن الله عز يقول لهم: إن كل ما أمرتكم به فيه حكمة ظاهرة ومصلحة للعباد فاتركوا السؤال عنه، وانظروا ما أنتم عليه من إتيان البيوت من ظهورها وليس ذلك في البر شيء.[١٨]

علاقة استطرادية:

في الحديث: أن ناسا من الأنصار كانوا إذا أحرموا لا يدخل أحدهم حائطاً أو داراً أو فسطاطاً من باب؛ فإن كان من أهل المدر نَقَبَ نقباً في ظهر بيته، منه يدخل ومنه يخرج، أو يتخذ سلماً يصعد به، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف القباء، فوجه التماسك إذا من جهة الاستطراد، يكون عندما ذكروا مواقيت الحجّ، وكانت تلك تصرفاتهم في الحج، إذ استطرد سبحانه وتعالى إلى تلك التصرفات وأنها ليست من البر في شيء.[١٩]

علاقة تمثيل:

وكأن قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾[٢٠] من قبيل التمثيل لما هم عليه من تعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم كمثل من يترك بابا ويدخل من ظهر البيت، فقيل لهم: ليس البر ما أنتم عليه من تعكيس الأسئلة ولكن البرَّ من اتَّقى؛ أي باشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا، والمراد النهائي أن يصمم القلب أن جميع ما أمر الله تعالى به فيه حكمة وإن اختفت.[٢١]

ومن علاقة التمثيل قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ ﴾.[٢٢]

فما وجه تماسك حادث الإسراء بآياتنا موسى الكتاب؟ يرى الزركشي أن معنى الآية يدرك بتقدير كلام (أطلعناه على الغيب عيانا، وأخبرناه بوقائع من سلف بيانا، لتقوم أخباره على معجزته برهانا، أي سبحان الذي أطلعك على بعض آياته لتقصها ذكرا، وأخبرك بما جرى لموسى وقومه في الكرتين).[٢٣]

ويبدو أن الذي قاد الزركشي إلى مثل هذا التأويل؛ أن إتيان موسى الكتاب معجزة وحادث الإسراء معجزة، كما أن حادثة الإسراء فضل من الله تعالى بعد انقطاع الوحي فترة من الزمن وأُسْرِيَ بموسى حين خرج خائفا يترقب.[٢٤]

علاقة حُسْنُ تخلص:

قال تعالى: سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ ﴾،[٢٥] فإنه سبحانه ذكر عذاب الكفار وصفته وأنه لا دافع له من الله إلا الله، ثم تخلص إلى قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ ﴾.[٢٦] بوصف الله بـ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ ﴾.[٢٧]

يرى الزركشي أن حسن التخلص موجود في القرآن الكريم كما في الشعر الجيد،يقول: (وبهذا يظهر لك اشتمال القرآن العظيم على النوع المسمى بالتخلص).[٢٨] كما أن علاقة حسن التخلص صفة تماسكية موجودة في كل كلام رفيع؛ شعرا أو نثرا، به يتفاوت الشعراء والبلغاء، يقول الجاحظ: (أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا وسُبِك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان).[٢٩]

ويدرج ابن رشيق هذا القول في باب النظم، فصل: "أجود الشعر" مما يدل على أن حسن التخلص سمة أصيلة من سمات الكلام الجيد.

ومن حسن التخلص قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾.[٣٠]

إن الله تعالى لما أراد أن ينتقل من صفات وأحوال أصنامهم إلى صفاته سبحانه، قال تعالى: فَإِنَّهُم ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾[٣١] شرع في بيان صفاته العليا.[٣٢]

ومن حسن التخلص أيضاً قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢﴾.[٣٣]

ويقف الزركشي مع هذه الآية وقفة لا يخفي فيها انبهاره أمام هذا الانتقال الإعجازي العجيب من موضوع إلى آخر، يقول: (وهذا من بديع التخلص؛ فإنه سبحانه خلص من وصف المخلصين وما أعد لهم إلى وصف الظالمين وما أعد لهم).[٣٤]

والزركشي في صدد شرح علاقة حسن التخلص يذكر قاعدة عامة تتحكم في تلك العلاقة، يقول: (واعلم أنه حيث قصد التخلص فلا بد من التوطئة له، ومن بديعه قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾،[٣٥] يشير إلى قصة يوسفυ، فوطَّأ بهذه الجملة إلى ذكر القصة، يشير إليها بهذه النكتة من باب الوحي والرمز، وكقوله سبحانه موطأً للتخلص إلى ذكر مبتدأ خلق المسيحυ:[٣٦] ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾.[٣٧]

علاقة سياقية:

في بعض الآيات يقوم السياق بإسناد قوي في الوصول لدلالة الآيات، من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾،[٣٨] تطرح القراءة البسيطة للآيتين السؤال الآتي: ما وجه تماسك منع مساجد الله وتخريبها، بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ ﴾، اعتمد الزركشي هنا على السياق في تفسير وجه الارتباط بين الآيتين؛ فقد كان تخريب بيت المقدس قد سبق؛ أي فلا يجرمنكم ذلك واستقبلوها فإن لله المشرق والمغرب.[٣٩]

ومن الآيات كذلك التي يُعتَمَد على السياق في الوصول إلى دلالتها قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾.[٤٠]

يقول الزركشي في تفسير تراتب هذه الآيات: (إنه جمع بينها على مجرى الإلف والعادة بالنسبة إلى أهل الوبر، فإن كل انتفاعهم في معايشهم من الإبل، فتكون غايتهم مصروفةً إليها، ولا يحصل إلا أن ترعى وتشرب، وذلك بنزول المطر، وهو سبب تقلُّب وجوههم في السماء، ثم لا بد لهم من مأوى يؤيهم، وحصن يتحصنون به، ولا شيء في ذلك كالجبال ثم لا غنى لهم -لتعذر طول مكثهم في منزل- عن التنقل من أرض إلى سواها، فإذا نظر البدوي في خياله وجد صورة هذه الأشياء حاضرة فيه على الترتيب المذكور).[٤١]

العطف: علاقة تقدير تشاكل نحوي:

يتناول الزركشي هنا بعض الآيات المعطوفة والتي لا يجمعها رابط نحوي، ومن شروط العطف كما هو معلوم التشاكل، كعطف الجملة الفعلية على جملة فعلية أخرى، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾.[٤٢]

يتساءل الزركشي عن وجه عطف ﴿أَلَم تَرَ إِلَى ٱلَّذِى﴾ .. الجملة الفعلية، على الجار والمجرور ﴿أَوۡ كَٱلَّذِى﴾؟ وفي سبيل أن يثبت الزركشي تماسكا بين الآيتين يلجأ إلى تقدير كلام محذوف يستقيم مع القاعدة النحوية في العطف، فيرى أن ﴿أَلَم تَرَ إِلَى ٱلَّذِى﴾ بمنزلة: هل رأيت الذي حاج إبراهيم في؟ يقول: (وإنما كانت بمنزلتها –هل رأيت– لأن ﴿أَلَم تَرَ ...﴾ مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي ولذلك يجاب ببلى، والاستفهام يعطي النفي، إذ حقيقة المسْتَفْهَم عنه غير ثابتة عند المستفهم، ومن ثَمَّ جاء الاستفهام مكان حرف النفي، ونفي النفي إيجاب، فصار بمثابة (رأيت) غير أنه مقصود به الاستفهام، ولم يمكن أن يؤتى بحرفه لوجوده في اللفظ، ولذلك أعطى معنى: هل رأيت؟ فإن قلت: مِن أين جاءت (إلى) ورأيت يتعدى بنفسه؟ أجيب لتضمنه معنى (تنظر).[٤٣]

٢– التماسك بين الآيات غير المعطوفة:

يتناول الزركشي أيضا بعض الآيات التي لا يوجد فيها عطف، يبحث في أسرار التماسك بين الآيات التي يوحي ظاهرها بعدم وجود أي ارتباط، محاولا أن يقدم تفسيرا يعلل تجاور تلك الآيات، ويمكن أن نستخلص قراءة الزركشي لتلك الآيات في العلاقات الآتية:

علاقة تنظير:

يرى الزركشي أن إلحاق النظير بالنظير علاقة منطقية، فمن دأب العقلاء إلحاق النظير بالنظير. ويدرج الزركشي ضمن هذه العلاقة التماسك الموجود في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.[٤٤]

إن الإشكال الذي تطرحه الآيتان، هو ما وجه التماسك بين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾ وبين ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾؟

يعلل الزركشي التماسك في الآيتين بعلاقة التنظير، ذلك أن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يمضيَ في تقسيم الغنائم على كره من أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العدو وهم كارهون؛ ذلك أن الصحابة اختلفوا في القتال يوم بدر في الأنفال، وجادلوا الرسول صلى الله عليه وسلم عليه وسلم فكره كثير من الصحابة أمر تقسيم الغنائم فأنزل الله هذه الآيات التي وصفت المؤمنين حقا وأمرتهم بالطاعة والتقوى، وعدم الاعتراض على قسمة الرسول صلى الله عليه وسلم عليه وسلم في أمر الغنائم؛ ثم قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ

بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾، أي أن كراهتهم لقسمة الغنائم ككراهتهم للخروج حين دُعُوا لطلب العدو.[٤٥]

علاقة تقدير كلام محذوف:

تقوم هذه العلاقة بتفسير وجه التماسك بين آيتين أو أكثر، ومن ثمّ فتح الدلالة الممكنة للآيات على أفق أوسع، ومن الآيات التي تدرك أكثر عبر هذه العلاقة قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ۝٨٩ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ۝٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٣ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦﴾.[٤٦]

لعل تقدير كلام محذوف هنا يفسر بوضوح الآيتين، كأنه قال: قل أنا النذير المبين، أنزلتُ عقوبة أو عذاباً مثلما أنزلنا على المقتسمين.[٤٧]

علاقة سياقية:

من الآيات التي يقوم السياق بدور كبير في تفسيرها، قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧﴾،[٤٨] وقد توسطت قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾،[٤٩] وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٢١﴾.[٥٠]

إن ظاهر الآيات يوحي بانفصالها، فما وجه وجود ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾ بين كل تلك الآيات المتماسكة؟ فمن الملاحظ أن الزركشي يتوصل إلى التماسك الموجود بين الآيات باعتماده سياق الآية يقول: (فهذا من باب قولك للرجل وأنت تحدثه بحديث فينتقل عنك ويقبل إلى شيء آخر: أقبل عليَّ واسمع ما أقول، وافهم عنِّي الكلام الأول؛ قاطعا له، وغنماً يكون به مشوقا للكلام، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم أميا لا يقرأ ولا يكتب؛ وكان إذا نزل عليه الوحي وسمع القرآن حرَّك لسانه بذكر الله، فقيل له: تَدَبَّرْ ما يوحى إليك ولا تتلقفه بلسانك، فإنَّما نجمعه لك ونحفظه عليك).[٥١]

علاقة تضاد:

من الآيات التي يُفهَم وجه التماسك بينها بهذه العلاقة أوائل سورة البقرة، فيها حديث عن القرآن الكريم، وأنه هدى للمتقين، وأن من صفات المؤمنين الإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، وإنفاق المال في سبيل الله، فلما فرغ عز وجل من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾.[٥٢]

يقول الزركشي: (فبينهما جامع وهمي بالتضاد من هذا الوجه، وحكمته التشويق والثبوت على الأول كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء).[٥٣]

علاقة استطرادية:

من الآيات التي يُدرَك التماسك بينها بواسطة هذه العلاقة، قوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦﴾.[٥٤]

لقد وردت هذه الآية عقب كشف السوءات وخصف الورق، وذلك إظهارا لفضل الله ومنته على عباده فيما خلق من اللباس، ولِمَا في العُري من المهانة، وإشعارا بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى.[٥٥]

يقتبس الزركشي من "إعجاز القرآن" للباقلاني العلاقة الاستطرادية في تفسير التماسك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ۝٤٨ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩﴾.[٥٦]

إن بداية الكلام في الآيتين عن أمر خاص وهو قدرة الله في خلقه، ثم أجرى الحديث إلى سجود الكون وما فيه لله عز وجل.[٥٧]

علاقة تنشيط للمتلقي:

يكون في بعض الآيات الانتقال من حديث إلى آخر من مقاصده –يبدو– ومراعاة التفاعل بين المتلقي والنص، حيث يتجلى تنشيط المتلقي من أبرز هذه المقاصد كقوله تعالى: ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٩﴾.[٥٨]

فلما أفرغ تعالى من ذكر الأنبياء قال: ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ﴾ فربط تلك الإخبارات باسم الإشارة لينتقل إلى حديث آخر، كما في قولنا: أشير عليك بكذا، ثم تقول بعده: هذا الذي عندي والأمر إليك.

وأيضا لما فرغ تعالى من ذكر الجنة قال: ﴿هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦﴾،[٥٩] منتقلا تعالى إلى آخر حديث كما انتقل في الأول.[٦٠]

ب–التماسك بين السور:

يؤسس الزركشي دراسته للتماسك بين السور من اقتناعه بأن ترتيب السور توقيفي، ويؤكد على هذه الرؤية عبر ملاحظة التماسك الشديد بين السور حيث يميز الزركشي بين ترتيب "التلاوة" وترتيب "التنزيل"، فترتيب التنزيل يربط الآيات بسياقها التاريخي فيما عرف بـ"أسباب النزول"، أما ترتيب "التلاوة" فهو أشمل إذ يتعلق بعلم الله الذي أراده تعالى بهذا الترتيب الموجود في المصاحف، فهو ترتيب للقرآن كما أنزله تعالى إلى السماء الدنيا.[٦١]

وتتوخّى دراسة الزركشي للتماسك بين السور، بيان الوحدة الدلالية أو الشكلية النحوية، لتؤكد ذلك البناء المتماسك للنص القرآني الذي يبدو كالكلمة الواحدة.

التماسك بين السور منه ما هو ظاهر قريب يسهل تلمسه، ومنه ما هو خفي يحتاج إلى تمكن واقتدار، ولاكتشافه من هذه الناحية يمكن أن يتميز مفسر عن آخر، (ومهمة المفسر محاولة اكتشاف هذه العلاقات أو المناسبات الرابطة بين الآية والآية من جهة، وبين السورة والسورة من جهة أخرى، وبديهي أنَّ اكتشاف هذه العلاقات يعتمد على قدرة المفسر وعلى نفاذ بصيرته في اقتحام آفاق النص).[٦٢]

إن النص القرآني فضاء مفتوح غير مغلق على قراءة جيل أو فرد بعينه أو مذهب محدد، بل إن النص القرآني نفسه يدعو المتلقين لتدبره والتفكر والتأمل فيه، لكنه لا يقبل القراءة المتربصة فهو ما يفتؤ بنفسه أن يفضح هذه القراءة الشاذة أو المتربصة أو التي تريد تقويض قواعده الفكرية من الداخل فقد (يعتمد مفسر على بعض معطيات النص ليكشف من خلالها علاقات خاصة، بينما يعتمد مفسر آخر على معطيات أخرى فيكشف عن نمط آخر من العلاقات).[٦٣]

لقد استطاع الزركشي ببراعة كبيرة ونفاذ بصيرة، أن يرصد علاقات التماسك بين السور، رصدا كشف عن إمكانات أسلوبية إعجازية في النص القرآني المقدس، وأشار الزركشي إلى التماسك الموضوعي بين السور الذي لم يبرز بشكل واضح إلا مع سيد قطب في ظلاله.[٦٤]

إن محاولة الزركشي في جانب منها تستحق أن توصف بالمقاربة الأسلوبية النصية؛ لأنها رؤية متماسكة في نظرتها للتماسك بين الآيات والسور، حيث تفضي كل آية أو سورة للتي تليها.

لقد ارتقى الزركشي بالتماسك حتى جعله وجهاً يُطْلَبُ به معرفة الإعجاز، فكيف تماسك هذا البناء العظيم الذي نزل منجماً على مدار ثلاثة وعشرين سنة، يقول: (وهو مبنيٌّ –التماسك– على أن ترتيب السور توقيفي، وهذا الراجح كما سيأتي، وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها).[٦٥]

ويقول أيضا: (لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تُطلِع على أنه توقيفي صادر عن حيم).[٦٦]

وفعلا قد أثبت الزركشي تماسكا شديدا بين السور التي درسها على نحو يدل على إعجازية النص القرآني (وإذا ثبت هذا بالنسبة للسور، فما ظنك بالآيات وتعلق بعضها ببعض، بل عند التأمل يظهر أن القرآن كالكلمة الواحدة).[٦٧]

وبعد بيان دور التماسك وقيمته في القرآن كما بينها الزركشي، نرصد أهم العلاقات التي يرى أنها قادرة على تفسير تراتب السور.

يقول تعالى في افتتاح سورة المؤمنون: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾،[٦٨] ويقول تعالى في خاتمة السورة: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١١٧﴾.[٦٩]

إن التماسك بين فاتحة السورة واضح لا يحتاج إلى بيان، فالفاتحة حديث عن المؤمنين والخاتمة بيان لمخالفة صفات المؤمنين حتى قال الزمخشري: (فشتان بين الفاتحة والخاتمة).[٧٠]

ومن ذلك أيضا افتتاح سورة "القصص" بقصة موسى ونصرته وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٧﴾[٧١] وخروجه من وطنه وإسعافه بالمكالمة، وختمها بأمر النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم بأن لا يكون ظهيرا للكافرين، وتسليته بخروجه من مكة والوعد بعَوْدِهَ إليها[٧٢] في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٨٥﴾.[٧٣]

التماسك النصي عند السيوطي:

يخصص السيوطي باباً مستقلاً من كتابه "الإتقان في علوم القرآن" للحديث عن الإعجاز مستأنساً كعادته بآراء العلماء في القضية، وذلك على النحو الذي سنتناوله في المبحث الذي بين أيدينا.

إن محاولة السيوطي والزركشي متشابهتان حيث ينقل السيوطي كثيراً من آرائه من كتاب البرهان، ولكن عند إمعان النظر، نتوصل إلى أن المحاولتين متكاملتان، ذلك أن ما يميز السيوطي في مجال التماسك النصي هو إفراده كتاباً خاصاً برصد التناسب بين السور، استقصى فيه أوجه التماسك بين سور القرآن كلها، وهو كتاب "تناسق الدرر في تناسب السور" أما الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن"، فقد توسع في رصد علاقات التماسك بين الآيات وأشار إشارات ذات قيمة كبيرة في التحليل النصي إلى التماسك بين السور في القرآن الكريم، ولكن تلك الإشارات بقيت ذات طابع عام.

وتجدر الإشارة في البداية إلى أن السمة الأساسية في مؤلفات السيوطي هي النقل إلى حد وقوع الحافر على الحافر على مؤلفات من سبقه، وهو انتقاد يدمغ كل ما أنتجه السيوطي؛ فأغلب آرائه إنما هي جمع لآراء من سبقه من العلماء في كل مسألة يتناولها.

ولكن ما ينبغي أن ننبه إليه أن شخصية السيوطي تبدو واضحة ثابتة، مناقشة ومحاورة، تثبت ما تراه سليما وترفض ما تراه غير ذلك، (وتتبين شخصية السيوطي ودوره في تحليلاته البلاغية للنصوص الأدبية، ومقابلتها بنظائرها من تحليلات البلاغيين السابقين عليه، أو المعاصرين له لتبين شخصيته ولا نطلب من السيوطي أكثر مما ينبغي لموسوعي حفظ لنا التراث البلاغي، وكان في انتقائه المادة البلاغية وترتيبها راصدا آخر ما تواضع عليه البلاغيون).[٧٤]

يبدأ السيوطي حديثه عن الإعجاز، بذكر طائفة من العلماء الذين بحثوا الإعجاز القرآني مثل الخطابي، والرماني، والزملكاني، والإمام الزركشي، وابن سراقة، والقاضي أبي بكر الباقلاني. فقد أشاد به كثيراً، وردد عبارة ابن العربي في وصف كتاب "إعجاز القرآن" حيث قال: (ولم يصف مثله قط).[٧٥]

ومن ذلك يتبين أثر الباقلاني في السيوطي، ويتبين ذلك -أيضا- في الاعتماد الواسع على "إعجاز القرآن" حيث يبدو باب الإعجاز في "الإتقان" سلسلة اقتباسات من الباقلاني.

التماسك بين السور عند السيوطي:

يناقش السيوطي التماسك بين السور في باب مستقل من كتابه "الإتقان في علوم القرآن" سماه "مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالب" وقد قاده تأمله في التماسك الشديد بين السور والآيات إلى استشعار أمر خارج عن حدود الطاقة البشرية، ويتجلى ذلك في كثير من عبارات الانبهار التي طبعت هذا الباب، فالتماسك الشديد الذي يسم النص القرآني الذي نزل على مدة متطاولة، ونزل في الزمان والمكان المختلفين ليس إلا مؤشرا على منزل هذا النص. يقول: إن لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تُطْلِع على أنه توقيفي صادر عن حكيم، وهكذا يغدو التماسك وجها جديدا في إعجاز القرآن، وسمة أساسية من سمات النص القرآني، ذلك النص الذي تميز بتماسك شديد بين آياته وسوره، تلك الآيات والسور التي نزلت على مدار نيف وعشرين سنة.

ونستطيع أن نجمل علاقات التماسك بين السور في العلاقات الآتية:

علاقة تماسك بين فواتح السور وخواتمها:

من ذلك افتتاح سورة "ص" بالذكر، وختمها به في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ۝٨٨﴾،[٧٦] ومن ذلك بدء سورة "نون" بقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾،[٧٧] وختمها بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝٥١﴾.[٧٨]

علاقة تماسك بين فاتحة السورة وخاتمة التي قبلها:

كالتماسك الموجود بين افتتاح سورة فاطر وختام سورة سبأ، وافتتاح سورة الحديد وختام سورة الواقعة، وافتتاح سورة البقرة وختام الفاتحة، وافتتاح المائدة وختام سورة النساء.

التآخي والتلازم:

يرى السيوطي في مناسبة سورة "الأنعام" لآخر "المائدة" أنها (افتتحت بالحمد، وتلك ختمت بفصل القضاء، وهما متلازمان[٧٩] كما قال: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾.[٨٠]

وتتلازم سورتي "البروج" و"الطارق" ولهذا السبب قرنتا، وقدمت الأولى لطولها، وذكرا بعد الإنشقاق للمؤخاة في الإفتتاح بذكر السماء، ولذا ورد في الحديث مرادا بها السور الأربع، كما قيل المسبحات.[٨١]

المشابهة في المطلع:

يبرر السيوطي التماسك الشديد بين سورتي "الطور" و"الذاريات" يقول: (فإن في مطلع كل منهما صفة حال المتقين)،[٨٢] ففي مطلع كل منهما:

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٥﴾،[٨٣]

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ۝١٧﴾.[٨٤]

المشابهة في المقطع:

ومن صور التماسك بالمشابهة في المقطع أيضا، سورتا "الذاريات" و"الطور" ففي مقطع كل منهما وصف حال الكفار:[٨٥] ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾،[٨٦] ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ۝٤٢﴾.[٨٧]

علاقة تماسك نحوي:

كالتماسك الموجود بين سورة "قريش" وسورة "الفيل" ويرى السيوطي أن سورة "قريش" شديدة الاتصال بما قبلها؛ لتعلق الجار والمجرور في أولها بالفعل في آخر تلك، ولهذا كانتا في مصحف أُبيّ سورة واحدة.[٨٨]

علاقة تقابل:

كالتقابل الذي يربط بين سورة (الكوثر) وسورة (الماعون)، وتتجلى المقابلة بين السورتين كما يلي:

- مقابلة البخل الوارد في الماعون ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦﴾،[٨٩] بالكوثر أي الخير الكثير ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾.[٩٠]
- مقابلة ترك الصلاة والتهاون فيها ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾،[٩١] بالأمر بالصلاة ﴿فَصَلِّ﴾.
- مقابلة الرياء الذي هو العمل للناس ورضاهم..﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦﴾،[٩٢] الأمر بإخلاص العبادة والعمل لله وحده ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾
- مقابلة منع الماعون ﴿وَيَمۡنَعُونَ المَاعُونَ﴾، بالتصدق بلحوم الأضاحي ويشير إليه قوله تعالى: ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾.

وقد أشار السيوطي إلى أنه في سورة "الصف" ذكر حال موسى مع قومهم وأذاهم له ناعيا عليهم ذلك، وفي سورة (الجمعة) حال الرسولصلى الله عليه وسلم وفضل أمته؛ ليظهر فضل ما بين الأمتين ولذا لم يعرض فيه لذكر اليهود.[٩٣]

بيان العلة:

يرى السيوطي أن سورة (التكاثر) (واقعة موقع العلة لخاتمة ما قبلها، كأنه لما قال هناك: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩﴾،[٩٤] قيل: لمَ ذلك؟ فقال: لأنكم ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾،[٩٥] فاشتغلتم بدنياكم، وملأتم موازينكم بالحطام، فخفت موازينكم بالآثام، ولهذا عقبها بسورة العصر، المشتملة على أن الإنسان في خُسر، بيان لخسارة تجارة الدنيا وربح تجارة الآخرة، ولهذا عقبها بسورة الهمزة المتوَعَّد فيها مَن جمع مالا وعدّده، يحسب أن ماله أخلده. فانظر إلى تلاحم هذه السور الأربع، وحسن اتساقها).[٩٦]

علاقة تماسك بحسب الحروف:

كالتماسك الموجود في سور الحواميم.

علاقة تماسك إيقاعي:

كالتوازن في اللفظ في آخر المسد وسورة الإخلاص، ومن هذه العلاقة أيضا؛ أن كل سورة بدأت بحرف منها فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له، فَحُقَّ لكل سورة منها أن لا يناسبها غير الوارد فيها، فلو وضع (ق) موضع (ن) لعدم التناسب الواجب مراعاته في كلام الله تعالى.

وسورة (ق) بدأت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ (القاف) من ذكر القرآن، والخلق، وتكرير القول ومراجعته مرارا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين، وقول العتيد الرقيب، والسائق في جهنم، والتقدم بالوعد، وذكر المتقين والقلب والتنقيب في البلاد وتشقق الأرض وحقوق الوعيد وغير ذلك.[٩٧]

علاقة عطف:

كالتشابه بين سورة الضحى وسورة الشرح، يقول السيوطي:[٩٨] (هي شديدة الاتصال بسورة الضحى، لتناسبهما في الجمل، ولهذا ذهب بعض السلف إلى أنهما سورة واحدة بلا بسملة بينهما، قال الإمام: والذي دعاهم إلى ذلك هو أن قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾،[٩٩] كالعطف على: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٧﴾[١٠٠]).

التتميم والتكميل:

يرى السيوطي أن سورة (سأل) هي كالتتمة لسورة (الحاقة) في بقية وصف القيامة والنار.[١٠١]

التحقيق:

يرى السيوطي أن خاتمة سورة "لإنسان"، في قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣١﴾،[١٠٢] افتتح سورة (المرسلات) بالقسم على أن ما يوعدون لواقع، فكان ذلك تحقيقا لما وعد به هناك المؤمنين، وأعد للظالمين.[١٠٣]

التعليل:

ورد في سورة التغابن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤﴾،[١٠٤] وكانت عداوة الأزواج تفضي إلى الطلاق، وعداوة الأولاد قد تفضي إلى القسوة، وترك الإنفاق عليهم، عقب ذلك بسورة فيها ذكر أحكام الطلاق، والإنفاق على الأولاد والمطلقات بسببهم.[١٠٥]

الإجابة عن سؤال:

ويتجلى ذلك في العلاقة التماسكية بين سورتي (البينة) و(الزلزلة)، يقول السيوطي: (لما ذكر في آخر (لم يكن) أن جزاء الكافرين جهنم، وجزاء المؤمنين جنات، فكأنه قيل: متى يكون ذلك؟ فقيل: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١﴾،[١٠٦] أي حين تكون زلزلة الأرض، إلى آخره، هكذا ظهر لي، ثم راجعت تفسير الإمام الرازي، ورأيته ذكر نحوه حمدت الله كثيرا).[١٠٧]

التناسب في الافتتاح:

يقول السيوطي عن التناسب بين سورتي (القمر) و(الممتحنة) أنه: (لا يخفى ما في توالي هاتين السورتين من حسن التناسق في التسمية، لما بين النجم والقمر من الملابسة، ونظيره توالي الشمس والليل والضحى، وقبلها سورة الفجر).[١٠٨]

علاقة تماسك صوتي دلالي:

فقد اشتملت سورة "ص" على خصومات متعددة فأولها خصومة النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم مع الكفار، وقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾،[١٠٩] ثم اختصام الخصمين عند داود ثم تخاصم أهل النار ثم اختصام الملأ الأعلى ثم تخاصم إبليس في شأن نبيه وإغوائهم.

وسورة الأعراف زيد فيها على (ألم) حرف (الصاد)، لما فيها من القصص؛ قصة آدمυ فمن بعده الأنبياء ولما فيها من ذكر:[١١٠] ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾[١١١] وزيد في سورة الرعد حرف (الراء) لأجل قوله تعالى: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ ولأجل ذكر الرعد، والبرق، وغيرهما.

علاقة إجمال/ تفصيل:

وتنقسم هذه العلاقة إلى الأقسام الآتية:

تفصيل لإجمال آخر السورة:

ويتجلى ذلك في العلاقة بين سورتي المؤمنون والحج، يقول السيوطي: (وجه اتصالها بسورة الحج: أنه لما ختمها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٧٧﴾،[١١٢] وكان ذلك مجملا، فصّله في فاتحة هذه السورة، فذكر خصال الخير التي من فعلها فقد أفلح، فقال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ

عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾).[١١٣]

تفصيل لإجمال آيات داخل السورة:

فقد قال تعالى في سورة المجادلة: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾،[١١٤] وهو تفصيل لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٤﴾.[١١٥]

ويبدو أن في هذا الرصد لتماسك هذه الآيات يتجاوز المستوى النحوي على مستوى الآية ومجموعة الآيات إلى رصد التماسك بين آيات متباعدة المواقع.

تفصيل لما أجمل في سورة سابقة:

تعد هذه العلاقة (إجمال أو تفصيل) من العلاقات المفتاحية في تفسير التماسك بين السور القرآنية، حتى إننا نلمسها في العلاقة المهيمنة على كل العلاقات في كتاب السيوطي الذي خصت لرصد العلاقات بين السور مصنفا خاصا بذلك، وقد استطاع السيوطي في هذه العلاقة أن يثبت إثباتا دقيقا مقولة: إن القرآن الكريم كالكلمة الواحدة، إذ الآية والسورة المفصلة، تفسر وتبين وتؤكد الآية أو السورة المجملة قبلها، من أول كلمة في القرآن حتى آخر كلمة فيه.

الخاتمة:

يبدو في الأخير أن علم المناسبة علم جليل القدر، عظيم الفائدة، ذلك أنه يقوم على ربط سور القرآن الكريم وآياته، فهو من هذه الناحية يعبر تعبيراً دقيقاً عن الإعجاز، فعلى الرغم من بقاء النص القرآني نصا مفتوحا تتنزل آياته وسوره تنزيلا منجما يجد المتأمل في القرآن الكريم تماسكا يثير الإعجاب والدهشة، وقد قدّم العلماء في المناسبة آليات وأدوات استطاعت أن تبرهن على الوحدة النصية للقرآن الكريم، حتى إن الزركشي يَعُدُّ المناسبة هي الوجه الرابع من وجوه إعجاز القرآن، ويُعَدّ الزركشي من أبرز من وَظَّف قواعد علم أصول الفقه في دراسات علوم القرآن والتفسير، ومن هنا نجد كثيراً من المباحث المشتركة بين علوم القرآن وأصول الفقه.

لقد خصصت نظرية المناسبة القرآنية حيزا واسعا من مساحتها لدراسة التماسك الدلالي، وذلك عبر تقديم آليات نصية قادرة على إبراز التماسك في النص القرآني، ويعد كتاب "تناسق الدرر" للسيوطي تطبيقاً واسعاً لنظرية المناسبة القرآنية.

الهوامش:

[١] ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، (بيروت: دار الجيل، د.ت)، ج٢، ص٤٢٣-٤٢٤.

[٢] القطان، مناع، **مباحث في علوم القرآن**، ط٢٢، (مؤسسة الرسالة، د.ت)، ص٩٧.

[٣] البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن بن الرباط بن علي بن أبي بكر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د. ت)، ج١، ص٦.

[٤] مراد، وليد. **النص القرآني من الجملة إلى العالم**، (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٣م)، ص٦٣.

[٥] انظر: أبو زيد، أحمد. **التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي**، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، د. ت)، ص١٣.

[٦] السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، **الإتقان في علوم القرآن**، ط١، خرج أحاديثه: أحمد بن أحمد، (مكتبة الصفا، ٢٠٠٦م)، ج٣، ص٢١٣.

[٧] الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٨م)، ج١، ص٣٦.

[٨] الخطيب، عبد الله، ومسلم، مصطفى، "المناسبات وأثرها في تفسير القرآن"، **مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية**، المجلد (٢)، العدد (٢)، يونيو ٢٠٠٥م، ص٦.

[٩] سورة النساء: ٨٢

[١٠] منير، وليد، **النص القرآني من الجملة إلى العالم**، ط٢، (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٣م)، ص٦٣.

[١١] السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، **معترك الأقران**، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ج١، ص٥٦.

[١٢] انظر: السابق نفسه، ج١، ص ١٠٨.

[١٣] انظر: السابق نفسه، ج١، ص٤٠.

[١٤] سورة سبأ، الآية ٢.

[١٥] سورة البقرة، الآية ٢٤٥.

[١٦] السابق نفسه، ج١، ص٤٠.

[١٧] سورة البقرة، الآية ١٨٩.

[١٨] انظر: السابق نفسه، ج١، ص٤٠.

[١٩] انظر: السابق نفسه، ج١، ص٤١.

[٢٠] سورة البقرة، الآية ١٨٩.

[٢١] انظر: السابق نفسه، ج١، ص٤٢.

[٢٢] سورةالإسراء، الآية ١.

[٢٣] السابق نفسه، ج١، ص٤٣.

[٢٤] انظر: السابق نفسه، ج١، ص٤٣.

[٢٥] سورة المعارج، الآية ١.

[٢٦] سورة المعارج، الآية ٤.

[٢٧] سورة المعارج، الآية ٣.

[٢٨] المرجع نفسه، ج١، ص٤٣.

[٢٩] ابن رشيق، أبو علي الحسن، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ط٥، (بيروت: دار الجيل، د.ت)، ج١، ص٢٥٧.

[٣٠] سورة الشعراء، الآية ٧٢– ٨٢.

[٣١] سورة الشعراء، الآية ٧٧.

[٣٢] انظر: الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج١، ص٤٤.

[٣٣] سورة الصافات، الآية ٦٢.

[٣٤] انظر: السابق نفسه، ج١، ص٤٤.

[٣٥] سورة يوسف، الآية ٣.

[٣٦] انظر: السابق نفسه، ج١، ص٤٥.

[٣٧] سورة آل عمران، الآية ٣٣.

[٣٨] سورة البقرة، الآية ١١٤– ١١٥.

[٣٩] انظر: السابق نفسه، ج١، ص٤٥.

[٤٠] سورة الغاشية، الآية ١٧– ٢٠.

[٤١] السابق نفسه، ج١، ص٤٥.

[٤٢] سورة البقرة، الآية ٢٥٨–٢٥٩.

[٤٣] انظر: السابق نفسه، ج١، ص٤٦.

[٤٤] سورة الأنفال، الآية ٤–٥.

[٤٥] ا انظر: لسابق نفسه، ج١، ص٤٧.

[٤٦] سورة الحجر، الآية ٨٩–٩٦.

[٤٧] انظر: السابق نفسه، ج١، ص٤٧.

[٤٨] سورة القيامة، الآية ١٦–١٧.

[٤٩] سورة القيامة، الآية ١٤–١٥.

[٥٠] سورة القيامة، الآية ٢٠–٢١.

[٥١] السابق نفسه، ج١، ص٤٨.

[٥٢] سورة القيامة، الآية ٦–٧.

[٥٣] السابق نفسه، ج١، ص٤٩.

[٥٤] سورة الأعراف، الآية ٢٦.

[٥٥] انظر: السابق نفسه، ج١، ص٤٩.

[٥٦] سورة النحل، الآية ٤٨–٤٩.

[٥٧] انظر: السابق نفسه، ج١، ص٥٠.

[٥٨] سورة ص، الآية ٤٩.

[٥٩] سورة ص، الآية ٥٥–٥٦.

[٦٠] انظر: السابق نفسه، ج١، ص٥٥

[٦١] أبو زيد، نصر حامد، **مفهوم النص دراسة في علوم القرآن**، ط١، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م)، ص١٥٩

[٦٢] السابق نفسه، ص١٦٠

[٦٣] السابق نفسه، ص١٦١

[٦٤] انظر: السابق نفسه، ص١٦٣

[٦٥] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج١، ص٣٨

[٦٦] السابق نفسه، ج١، ص٣٩

[٦٧] السابق نفسه، ج١، ص١٨٦

[٦٨] سورة المؤمنون، الآية ١.

[٦٩] سورة المؤمنون، الآية ١١٧.

[٧٠] السابق نفسه، ج١، ص١٨٥

[٧١] سورة القصص، الآية ١٧.

[٧٢] انظر السابق نفسه، ج١، ص٣٨

[٧٣] سورة القصص، الآية ٨٥.

[٧٤] الجويني، مصطفى الصاوي، **البلاغة العربية تأصيل وتجديد**، (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٩٧م)، ص٧٩.

[٧٥] السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ص١١٦.

[٧٦] سورة ص، الآية ٨٧-٨٨.

[٧٧] سورة القلم، الآية ٢.

[٧٨] سورة القلم، الآية ٥١.

[٧٩] انظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، **تناسق الدرر في تناسب السور**، ط١، تحقيق عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م)، ص٨٣.

[٨٠] سورة الزمر، الآية ٧٥.

[٨١] انظر: السابق نفسه، ص١٣٥.

[٨٢] السابق نفسه، ص١١٩.

[٨٣] سورة الذاريات، الآية ١٥.

[٨٤]سورة الطور، الآية ١٧.

[٨٥] السابق نفسه، ص١١٩.

[٨٦] سورة الذاريات، الآية ٦٠.

[٨٧] سورة الطور، الآية ٤٢.

[٨٨] انظر: المرجع نفسه، ص١٤٤.

[٨٩] سورة الماعون، الآية ٦.

[٩٠] سورة الكوثر، الآية ١.

[٩١] سورة الماعون، الآية ٤- ٥.

[٩٢] سورة الماعون، الآية ٦.

[٩٣] انظر: السيوطي، **تناسق الدرر في تناسب السور**، ص١٤٢

[٩٤] سورة القارعة، الآية ٩.

[٩٥] سورة التكاثر، الآية ١.

[٩٦] السابق نفسه، ص١٤٣.

[٩٧] السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ص١١٣.

[٩٨] السيوطي، **تناسق الدرر**، ص١٣٨.

[٩٩] سورة الشرح، الآية ١.

[١٠٠] سورة الضحى، الآية ٦.

[١٠١] انظر: السابق نفسه، ص١٢٨.

[١٠٢] سورة الإنسان، الآية ٣١.

[١٠٣] انظر: السابق نفسه، ص١٣١.

[١٠٤] سورة التغابن، الآية ١٤.

[١٠٥] انظر: السابق نفسه، ص١٢٦

[١٠٦] سورة الزلزلة، الآية ١.

[١٠٧] السيوطي، **تناسق الدرر**، ص١٤٢.

[١٠٨] السابق نفسه، ص١٢٠.

[١٠٩] سورة ص، الآية ٥.

[١١٠] السابق نفسه، ص١٢٢.

[١١١] سورة الأعراف، الآية ٢.

[١١٢] سورة الحج، الآية ٧٧.

[١١٣] سورة المؤمنون، الآية ١-٦.

[١١٤] سورة المجادلة، الآية ٧.

[١١٥] سورة الحديد، الآية ٤.